تمظهر المفاهيم الصّوفية في رواية "الولّي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"

Sufi Concepts Appearance In the novel" Al-Wali Al-TahirYaoudilaMaqamih Al-Zaki "The Pure Saint Returns to his Honorable Position"

فطيمة بن أحمد*

د. عبد الرحمان بغداد ♣

تاريخ الإرسال: 2022/12/28	تاريخ القبول: 2023/04/09	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

يعدّ التّصوف بمفاهيمه وفلسفته وكذا مظاهر الحياة الاجتماعية في بنيته، مرجعا يعود إليه الرّوائي العربي للتّشبّع بقيم التسامح والتّسامي الإنساني، ولتحديد رؤيته للعالم، وتعدّ رواية "**الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي**" إحدى الرّوايات ذات المرجعية الصّوفية، ويسعى هذا البحث إلى مقاربتها بغية الكشف عن تمظهر المفاهيم الصّوفية بين ثناياها، وقد حاولنا الوقوف على أهم ملامح الفكر الصّوفي الواردة في المدوّنة وهي : الولاية الصوفية، والحال بأنواعه، والمقام، مستندين في ذلك إلى مقولات الفكر الصّوفي بخصوصها، ومن ثمّ استنطاق الخطاب الرّوائي لمعرفة كيفية تعالقه مع تلك المفاهيم ولكشف عن موقف الرّوائي من أحداث التاريخ الإسلامي وانعكاساتها على الحاضر العربي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الصّوفي، الرّواية الصّوفية، الوليّ الطّاهر يعود إلى مقامه الزّكي، الطّاهر وطّار، الرواية الجزائرية.

*المركز الجامعي مغنية، (الجزائر) fatimaf13000@gmail.com

♣المركز الجامعي مغنية، (الجزائر) abderrahmane-beghdad@hotmail.com

Abstract:

Sufism, with its concepts and philosophy, as well as the manifestations of social life in its structure, is a reference to which the Arab novelist returns toimbue himself with the values of tolerance and human transcendence, and to define his vision of the world. The novel entitled: "The Pure Saint Returns to his Honorable Position» is considered as one of the good examples within it Sufi concepts emerge. In this study, We have tried to identify the most important features of Sufi thought contained in this work, namely: the Sufi mandate, the state of its types, and the station, based on that on the statements of Sufi thought regarding it, and then interrogating the novelist's discourse to find out how it relates to those concepts to reveal the novelist's position on the events of Islamic history and their repercussions on the Arab present.

***Key words**:Sufi discourse, Sufi narration, The pure saint returns to his honorable shrine, Al-Taher Wattar, the Algerian novel.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: فطيمة بن أحمد ـ fatimaf13000@gmail.com

1. مقدمة

إنّ قارئ رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" يدرك منذ البداية أنّه أمام نصّ موجّه لقارئ يستوجب أن يكون على دراية بأحداث التاريخ الإسلامي من جهة، وعلى معرفة بما يكتنزه التّراث الصوفي من مفاهيم خاصة من جهة أخرى، فالنّص عبارة عن توليفة تاريخية دينية؛ إذ يتعالق بالتاريخ الإسلامي بحيث يوظّف أحداثه ويستدعي شخصياته ويرتحل في جغرافيته، كما أنّه يتفاعل مع التجربة الصّوفية وينهل مادته منها، ويمكن تبيّن ذلك سواء على صعيد المادة المعجمية المتّصلة بالتّصوّف، أو على صعيد بنية الفكر الصّوفي المتجلية على مدار النّص الرّوائي. فنحن أمام نصّ يجعل من التراث الصّوفي مُرتكزا لعرض رؤية الرّوائي الانتقادية للواقع السّياسي في المنطقة العربية على ضوء أحداث التاريخ الإسلامي. هذا ما يجعلنا نتساءل عن:

ما هي مفاهيم التّراث الصّوفي المستدعاة في الرّواية؟ ثمّ كيف تضافرت تلك المفاهيم الصّوفية مع تقنيات فنّ الرّواية للكشف عن موقف الرّوائي من أحداث التاريخ الإسلامي وانعكاساتها على الحاضر العربي؟ وللإجابة عن أسئلتنا هذه سنتطرّق إلى أهمّ المفاهيم الصّوفية الواردة في الرّواية فنعرفها ونبرز دلالاتها الصّوفية، ثمّ نحاول الكشف عن طريقة توظيفها في المدونة، ومنه معرفة كيف ساهمت تلك المفاهيم الصّوفية في بناء العالم الرّوائي في رواية "**الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزّكي**"، وقد بدا لنا أنّ أبرز المفاهيم الصّوفية استدعاء في النّص هي: الولاية الصّوفية، والحال بأنواعه، والمقام. وسندرس هذه المفاهيم وكيفية تمظهرها في الرّواية.

2. الولاية بين الرؤية الصّوفية والتوظيف الرّوائي

وردت كلمة "الولاية" في القرآن الكريم في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (آية 257 سورة البقرة). وأجمعت التّفاسير على أنّ صفات أولياء الله هم من آمنوا وصدقوا الإيمان بالتّقوى، وامتثلوا لأوامر الله واجتنبوا نواهيه، فتولّاهم الله بمعنى أنه نصيرهم.

1.2. الرؤية الصّوفية للولاية

يحدّد القشيري الولاية بقسمين؛ "الأوّل هو من يتولّى الله سبحانه أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة (...)، والثّاني هو الذي يتولّى عبادة الله تعالى وطاعته فعبادته تجري على التّوالي من غير أن يتخلّلها عصيان وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليّا..."[1]. فالولاية تكتمل عنده من جانبين؛ الأوّل: أنّها هبة إلهية والولي هو المجتبى من الله تعالى، والثاني: أنّها جهد إنساني، بحيث لاّ ينقطع الوليّ عن عبادة الله وطاعته.

وكانت النظرية الكاملة في الولاية قد وُضعت من قبل الحكيم الترمذي، إذ جعل لوليّ الله عشر خصال يمكن تبيّنها في قوله: "قال: نعم! أقامه (الله تعالى) في المرتبة على شريطة اللّزوم لها. فلمّا وفى له بالشّرط، ولم يبغ عملا في محلّ القربة نقله منها إلى الجبروت، ليقوم بجبر نفسه ومنعها بسلطان الجبروت، حتى ذلّت **وخشعت**. ثمّ نقله منها إلى ملك السلطان، **ليهذّب**، فذابت تلك العّزة التي في نفسه، وهي أصل الشّهوات، فصارت بائنة عنها. ثمّ نقله منها إلى ملك الجلال **ليؤدّب**. ثمّ نقله منها إلى ملك الجمال**لينقى**. ثمّ إلى ملك العظمة **ليطهر**. ثمّ إلى ملك الهيبة **ليزكى**. ثمّ إلى ملك الرّحمة **ليوسع**. ثمّ إلى ملك البهاء **ليربّى**. ثمّ إلى ملك البهجة **ليطيب**. ثمّ إلى ملك الفردانية **ليفرد**"[2].

إنّ الترمذي يرى أنّ الوليّ هو العبد الذي "أعتقه الله تعالى من رقّ النفس فجذبه إليه فصار حرّا وألزم المرتبة حتّى هُذّب وطُهّر وزُكّي فأعتقه الله تعالى من النّفس بجوده، بلا تبعة، فصار حرّا لم يبق له للنّفس فيه مطالبة بخلق من أخلاقها. فهو أيضا مجذوب من المرتبة"[3].مستندا في رأيه إلى قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**﴾ (آية 13 سورة الشورى)، فالولاية عنده محض اصطفاء ومنحة أزلية. وقدّم الترمذي العلامات التي تدلّ على أولياء الله وهي:[4] الذين إذا رأوا ذكر الله، لهم سلطان الحق، لا يقاومهم أحد حتى يقهره سلطان حقّهم، لهم الفراسة، لهم الإلهام،من آذاهم صعق وعوقب بسوء الخاتمة، اتفاق الألسنة بالثناء عليهم إلاّ من ابتلي بحسدهم،استجابة دعواتهم وظهور الآيات (الكرامات)، ما ينطقون به من العلم من أصوله (علم البدء، علم الميثاق، علم المقادير، علم الحروف).

2.2. تمظهرات الولاية في بناء شخصية (الوليّ الطاهر)

بالعودة إلى رواية **"الولي الطّاهر يعود إلى مقامه الزكي"** فالعنوان كجملة تامة الدلالة الصّوفية، كفيل بتوضيح العديد من صفات الولاية التّي صُبغت على شخصية

هذا (الولي)، فهو الوليّ أي أنّه -حسب الرؤية الصّوفية للولاية- المُجتبى بمشيئة الله، الذي مُنحت له الولاية وقد جُبرت نفسه حتى ذَلّت وخشعت، ثمّ هُذّب، ونقّي، وأُدّب، وطهُر حتى بلغ مقام التزكية، وهذه هي الدلالة الصّوفية للعنوان حسب ملفوظاته (الولي، الطاهر، المقام، الزّكي). وهذا (الولي) حسب صياغة العنوان وبالوقوف عند الفعل المضارع الدّال على استمرارية حدوث الفعل (يعود)، قد بلغ في سلوكه للطّريق الصّوفي مقام التّزكية وهو دائم العودة إليه، وإن كان لم يبق، بعد هذا المقام، الكثير لبلوغ الغاية الكُبرى للوليّ الصّوفي، وهي التفرّد بختم الولاية حسب نظرية الترمذي.

أمّا صفة (الطّهر) المقرونة (بالوليّ) فلا نجد أنّها من باب توظيف اسم الرّوائي كنوع من التوقيع كما ذهب إليه بعض الدّارسين، وإنّما هي اشارة لأحد المقامات التي بلغها هذا (الوليّ) كسالك للطريق الصّوفي، حيث بلغ ملك العظمة وطَهُر فاتّصف بـ(الطّاهر) حسب نظرية التّرميذي، وينظر الصّوفية للطّهارة على أنّ "الله اصطفى قلوب الأولياء والصّديقين ونظر إليها لتجلّي قدسه فطهّرها به عن لوث الطّبائع وجعلها مرأى المكاشفات والمعاينات والفراسات وسبب نظرهم إلى المؤمنين طهارة لقلوبهم عن هوى النّفوس ورجس الشّياطين..."[5]. فإذا كان (الولّي الطاهر) المذكور في العنوان من الأولياء الذين اجتباهم الله بمشيئته، فهو أيضا ممّن خصّهم بتطهير قلوبهم لاستقبال الاشراقات والمكاشفات للدّلالة على إحدى المقامات التي بلغها.

إنّ العنوان يختزل بكثافة مراحل الطّريق الصّوفي نحو الولاية التامة ويشير إلى المقامات الصّوفية التي قطعها هذا (الوليّ)، ما يجعل المتلقّي يلج إلى عوالم هذا النّص محمّلا بخلفيات دينية صوفية، فيصبح جاهزا لاستقبال أحداث ومشاهد روحانية، وغيبية، وكراماتية، وعرفانية، ومترقّبا للطقوس الصّوفية، وإذا كان العنوان يختزل لنا مفاهيم تلك النظرية فإنّ شخصيات الرّواية وأحداثها ستكشف لنا عن تمظهرات

الولاية الصّوفية، وتبرز إمّا عن صدقيتها في شخصية (الوليّ الطّاهر) أو مزاعمها فيصبح العنوان حينها ذو طبيعة تهكّمية.

في تتبّعنا لأقوال وأفعال شخصية (الوليّ الطاهر) بحثا عن العلامات الدّالة على ولايته، وجدنا أنّه كثير الطّاعات كالصّلاة والابتهال والمناجاة والدّعاء، ومن بين الأدعية المتكرّرة في النّص "**يا خافي الألطاف نجّنا مما نخاف**" إذ يردّده (الولي الطّاهر) طيلة الأحداث الرّوائية، وقد ذُكر هذا الدّعاء في كتاب "**خزانة الأسرار في الختوم والأذكار**" ويُنصح بترديد مائة مرة في اليوم لنيل الحاجة وفق المذهب الشّيعي[6]. ما يُبرز قلق الشخصية وخوفها من شيء مجهول، بينما أولياء الله لا خوف عليهم.

ومما يجلّي كثرة الطاعات أيضا قول السّارد: "**ظلّ الولي الطاهر يرفع كفيه ويتضرّع إلى الله بمختلف الأدعية ساعات طويلة**"، ويبرز في هذا المقطع السردي، أداء الوليّ للعبادات والالحاح في الدّعاء بالتضرع، فيتضّح عدم انقطاعه عن أداء الطاعات.بالإضافة إلى انقطاع الوليّ في خلوته بالطابق السّابع من المقام، والتي يعتبرها خلوته وطريقه إلى حبيبه ويقولمتباهيا بعباداته: **صعدتُ إلى خلوتي، حيث أبحرت من خلال سجدة يقول الشّيوخ إنّها استغرقت سبعة أيّام. ويقولون إنّهم لم يعثروا في كتب أولياء الله الصالحين الذين استبقونا، على مثل هذه السجدة**"[7]. وهو تعبير مبالغ فيه عن شدّة خشوع الوليّ الطّاهر في أداء فريضة الصّلاة.

إنّ هذه المقاطع أمثلة من الرّواية تدلّ على علامة كثرة أداء الطاعات والعبادات، فهذه صفة ثابتة على (الوليّ الطّاهر)، أما علامة العصمة من الوقوع في المعاصي والتي تثبت بها صفة (الطُّهر)، فتتمثّل في هروبه بدين الله من وباء الفسق والفجور بإنشائه للمقام الزّكي وجمع المريدين فيه لتحصين الأمّة. وكذلك في صدّه (لبلاّرة) وعدم الامتثال إلى رغبتها، فيكون بذلك حَسَن العبادة ممتثلا لأوامر ربّه ومعصوما من الوقوع في النّواهي.

ومن صفات الوليّ أيضا حسب نظرية الولاية عند الصّوفية، ظهورالكرامات على الوليّ، وللكرامة أنواع عندهم؛ "قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمان عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدّة قريبة، أو تخليص من عدوّ، أو سماع خطاب من هاتف."[8]وقد ظهر على شخصيّة (الوليّ الطاهر) الكثير من الكرامات منها:

* كرامة الشّفاء من الجروح دون التّداوي وفقط بالغطس في بركة وتمرير الماء على جسمه[9]. وهو أمر عرف عند الصوفية بتحقيق مقام التّوكّل، فبلغ ببعضهم الأمر إلى ترك أسباب التّداوي لتوكّلهم على الله، فالتّوكّل عندهم هو "ترك تدبير النّفس، والانخلاع من الحول والقوّة"[10]. وهذه الكرامة مستوحاة من معجزة نبيّ الله أيّوب عليه السّلام في شفائه من السقم بالغطس في النبع، فالرّوائي يقارب بين شخصية (الوليّ) وبين النّبي امعانا منه في تجسيد الولاية الصّوفية بكلّ حمولتها الفكرية في بناء شخصيّته الرّوائية، حيث يشير من خلال هذه الكرامة إلى قضية التفاضل بين النبوّة والولاية في الفكر الصّوفي.

*كرامة طي الأرض بالتعبير الصّوفي، فالولي الطاهر في النّص ينتقل أثناء حالة الوجد عبر جغرافيات متعدّدة، وتسمح هذه الكرامة للوليّ بخوض الحروب والمعارك الإرهابية، كمعركته في القاهرة والتي يطرح الرّوائي من خلالها قضية الإرهاب الذي عانت منه مصر. وقضيّة الهويّة العربية الإسلامية، حيث يقول (الوليّ الطاهر): "**رأيتني ممزّقا بين أنا وبين آخر غيري. نصفي ممتلئ بالقرآن الكريم وبالحديث النّبوي الشّريف وبابن عربي والمتنبي والجاحظ، والشنفرى، (...) ونصفي الآخر ممتلئ بماركس وأنجلز ولينين وسارتر(...)**"[11]. ففهي هذا المقطع السّردي يتحدّث السارد عن الصراع الحضاري بين (الأنا) العربي المسلم و(الأخر) الغربي، ويبيّن مدى تمظهر (الآخر) في (الأنا) والتأثّر بفكره وفلسفاته إلى درجة الانقسام إلى نصفين، أي انقسام (الأنا) (النّحن) إلى فئتين: فئة

الإسلاميين وفئة الشّيوعيين والعلمانيين، ما يوضّح الذوبان أو انبهار (الأنا) (بالأخر) وتلاشي الهوية العربية الإسلامية أمام سطوة الآخر الغربي إلى درجة خلق صراع داخل مجموعة (النّحن)، وهو ما يؤكّده قول الوليّ: **"حاولت استعادة أنا، نصف أنا الضائع، فما أفلحت. حاولت التّخلص من الآخر، فأخفقت"**[12].

* كرامة الخلود، إن صحّ القول، فالولّي الطّاهر لا يموت، وهذه الكرامة مستوحاة من الفكر الصّوفي الذي يقول بخلود الخِضر عليه السّلام، إذ يؤمن بعض الصّوفية أنّه حيّ "وأنّ الصالحين يجتمعون به ويأخذون عنه ويسألونه ويجيبهم ويوجد في المواضع الشّريفة ومواطن الخير[13]. ومن المقاطع السّردية الدّالة على خلود (الوليّ) قول السارد: **"(...) استشهد مرّات، مرة في عُيينة مدافعا عن محمد بن عبد الوهاب، ومرّة مع الأمير عبد القادر دفاعا عن "الزمالة" ومرّتين في كابول (...) كما استشهد في الشيشان..."**[14].

إنّ الكرامة الصّوفية ظاهرة وصريحة في بناء الشخصية تجري على يديها في النّصّ مجرى المعجزات على أيدي الأنبياء، ما يوضّح تمتّع الوليّ بإحدى صفات الأولياء، وهي وسيلة فنّية يستعين بها الرّوائي لتحقيق لا معقولية الأحداث وإضفاء اللاواقعية على العمل الرّوائي، وإن كانت هذه اللاواقعية مقبولة عقليا لدى القارئ العربي لأنّه متشبّع بالفكر الكراماتي، فساهمت الكرامة الصّوفية في بناء شخصية تتمتّع بالقدرة على التنقّل الجغرافي الخارق للعادة، والخلود الزمني، بما يبرّر حضورها في فضاءات متنوّعة وأزمنة متعدّدة ومنه طرح الاشكالات حول القضايا العربية الكُبرى كقضيتي الإرهاب والهوية.

لكن ليست صفات الطّهر وكثرة التّعبّد، والاتيان بالكرامات، أمور كافية لتحقق الولاية الصّوفية، فإذا عدنا إلى نظرية الحكيم الترمذي نجد الكثير منالصفات غائبة في بناء الشخصية، مما يتعذّر معه بلوغ الكمال الإنساني المنوط بالوليّ الصّوفي، كما أنّ

هنالك جانب ظلاّمي في شخصيته يظهر عليه كلّما جذبه الحال، بحيث يتحوّل إلى شخصية إرهابية أبعد ما تكون عن الوليّ الصّوفي، فهو يخوض الحروب بعبثية وفقَ قوله: "**مع من أحارب، ثمّ من أحارب؟**"[15]، بل إنّه أشبه في تطرّفه بشّخصية تاريخية، وإذا تأمّلنا المواصفات التي وصفه بها النّاص نجدها تتطابق مع الأوصاف الجسدية "**لمحمد بن عبد الوهاب**" ما يكشف لنا عن شخصيّة مرجعية مركّبة ومتناقضة إلى حدّ الانفصام، تتحوّل من الوليّ السالك للطّريق الصّوفي، القاصد للكمال الإنساني، إلى إرهابي يأتي بالفظاعات البشرية، فبناء هذه الشّخصية برؤية مرجعية يخضع لثنائية (الظاهر والباطن) ظاهرها (ملائكي) وفي أثناء الوجد تبرز صورتها الباطنية (الشيطانية)، وهي الشّخصية الدّينية السّلبية التي تشير إلى فئة الإسلاميين المتطرّفين، وفي الرّواية عودة إلى أحداث التاريخ الإسلامي، للتّساؤل عن أسباب تّطرّف هذه الفئة، كالإشارة إلى انطلاقة مشروع النهضة الإسلامية الذي أطلقه "**محمد بن عبد الوهاب**" –الذي سنتطّرق له في حينه- ولذلك كانت الشّخصية خالدة تتواجد في جغرافيات متعددّة،فهي تعبّر عن الفكر التّطرّفي،وتصبح ولاية (الوليّ الطّاهر) مزعومة يوظّفها الرّوائي بطريقة تهكّمية،وكانت الولاية الصّوفية، بما يشاع عنها من كرامات وخوارق سبيل الرّوائي لتعقّب ظاهرة التّطرف في التاريخ الإسلامي.

3.2. تمظهرات الولاية في بناء شخصية (بلاّرة)

أثبتت المرأة حضورا واضح المعالم في الذاكرة الشّعبية الصوفية، والمتمثّل في مقامات وأضرحة الوليّات الصّالحات المنتشرة في البلاد العربية. فالولاية ثابتة عند المرأة كما عند الرجل، وهو الأمر الذي لم يخف عن الرّوائي، لذلك أصبغ على شخصيته الرّوائية (بلاّرة) العديد من علامات الوليّة، لكن قبل الحديث عن صفات الولاية التي تتسم بها علينا أوّلا أن نوضّح نوعية هذه الشّخصية، التي تعرّف عن نفسها في النّص قائلة: "**بلارة. بلارة ابنة الملك تميم بن المعز، زوجة الناصر بن عَلَنَّاس بن حماد..**".

فهي شخصية لها وجودها المادي الحقيقي في تاريخ دولة بني زيري الصنهاجية، وهي ابنة السّلطان **تميم بن المعز بن باديس الصّنهاجي** (422هـ-501هـ) الملقّب بصاحب إفريقية، وقد زوّجها من ابن عمّه النّاصر بن علنّاس سنة 470هـ كعربون محبّة بمناسة عقد الصّلح بينهما، وجهّزها إليه من المهدية في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر[16]، إذن (بلاّرة) شخصية يستدعي الروائي من خلالها المرجعيةالتاريخية المتمثّلة في الحروب السياسية بين دولتين أمازغيتين، وقد تنازعتا على حكم منطقة المغرب الأوسط، فكان (لبلاّرة) دورا مهمّا في حقن الدّماء بينهما. ويبعث الرّوائي هذه الشخصية من غياهيب التاريخ ويُصبغ عليها من صفات الولاية الصّوفية ومنها:

* **من آذاهم صعق وعوقب بسوء الخاتمة**: أو اللعنة التي تحلّ على من آذى الأولياء، وهي أهم علامة تتمتّع بها (بلاّرة)، اذ تحقّقت كلّ العواقب التي حذّرت (الولي الطاهر) منها إذا ما سفك دمها، **"(...) ستلحقك بلوى خوض غمار الحروب، فتشارك في حروب جرت، وفي حروب تجري، وفي حروب ستجري، إلى جانب قوم تعرفهم، وقوم لا تعرفهم ولا تفقه لسانهم، ولا تدري لماذا يحاربون (...) ستلحقك بلوى حزّ الرؤوس وخنق الأطفال والعجائز والعجزة، وحرق الأحياء. تموت ألف ميتة وميتة، ويسقي دمك، كل صقع رفع فيه الآذان، وفي كلّ عودة لك تعاودك بلوى البحث عني من جديد دون أن تدري عمّ تبحث"**[17]، وفعلا تحققت لعنة (بلاّرة) على الولّي وكان لها بذلك سلطان الحق عليه، فانتصرت عليه وجزّت به في تيه بين الوعي واللاوعي، بين الواقع واللاواقع، بين الماضي والحاضر، يخوض الحروب لا يموت فيها ولا يحيا.

وهنالك إشارة أخرى يجب الوقوف عندها، عن طبيعة شخصية (بلارة)، حيث تقوله عن نفسها: "**أنزل من السّماء فأتخذ موقعي**"[18]. والأمر هنا يحتمل معنيين، إمّا صفتها الملائكية بما أنها ليست جنّية ولا شيطانا، وإمّا أنّها تحضر في النّص بصفتها (روحا) وهذا الأرجح عندنا، كأنّ الرّوائي يستحضر روحها للدّلالة على بلوغها قمّة مسار

الولاية الصّوفية؛ ألا وهو اليقين، وقد جاءت لفظة (اليقين) في القرآن الكريم بمعنى (الموت) في الآية الكريمة: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[19]. واليقين عند الصّوفية هو ارتفاع الشّك[20]، وبهذا تكون (بلاّرة) النّازلة من السّماء أي من عالم (الأرواح) بمعنى أنّها بلغت منتهى غاية السّالكين للطريق الصّوفي، ومنتهى غاية الواصلين للعلم الإلهي، أي حقّ اليقين[21]. وليس أكثر دلالة على ولايتها الصّوفية في النّص من بناء شخصيتها على أساس الطبيعة الروحية لا المادّية.إنّ شخصية (بلاّرة) تتسم بعلامات الوليّة الصادقة في دعوتها، فهي التي تشير إلى الولاية الصّوفية من حيث طبيعتها الرّوحية اللامادّية، ومن حيث تبنّيها للأفكار الصّوفية، إذ كانت تتوق إلى الحلول والاتحاد والتّوحد، ومن حيث دلالتها على حقن الدّماء، فهي شخصية تنشد السّلام الكامل والمحبّة الشّاملة، وكانت تلك رغبتها التي يكشفهاقول (الولي الطاهر): "**... ونشرع كلّنا الجوهر والعرض في إنجاب نسل جديد، نسل "كل الناس"، كما تقول بلارة، نسل أولياء الله الطّاهرين، ينتشر في الأرض فيملأها. يغيّر الله أقواما بقوم، يُذهب السلالة المصابة بالوباء، ويأتي بنا. سلالة لا تعرف لا الغضب، ولا الجشع، ولا الكراهية، ولا الحقد، تنفر من سفك الدّماء وتنفر من رائحة البارود، نسل "كل الناس"، البسيطة كلها خيمته، لا يعرف حدودا، ولا يقيم سجونا ومشانق ومقاصل، ولا يصنع بنادق، أو مدافع أو صواريخ أو طائرات. همه في هذه الحياة، أن يسبّح اسم ربه الأعلى الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى. نسل كل الناس. الله يحلّ في خليفة الله. متطهّرا من الأوبئة. يؤدّي الأمانة، كما أومر بتأديتها. يصلح في الأرض ولا يفسد. لعل هذا ما أرادت بلارة أن تقوله وهي تستجدي غلاما، يكون بداية سلالة كل الناس**"[22].

إذ تتّضح في هذا المقطع السردي الرؤية الصّوفية للعالم وللإنسانية في شخصية (بلارة)، فهي تنشد عالما مثاليا يكون فيه الإنسان خليفة الله، فيحقّق خلافة ترتقي به إلى بلوغ الكمال ويصل إلى مرتبة الإنسان الكامل، وهو ما تعبّر عنه جملة "الله يحلّ في

خليفة الله"، أي تعمير العالم بإنسان خال من نوازع الشّر ويتحلّى بالصفات الإلهية، وتتّخذ من دعوتها لوحدة الأديان سبيلا لتحقيق السّلام المنشود، فهي تقول أنّ نسل "كل النّاس" هم "**صينيون أمريكان، هنود، ألمان، فرنسيس، مسلمون، مسيحيون، يهود، هندوس، عبدة الشمس وأوثان**"[23].

من خلال ما تتبّعنالتمظهرات الولاية الصّوفية في بناء الشخصيتين المحوريتين (الوليّ الطاهر) و(بلاّرة) يمكننا القول إن حظ (الوليّ الطاهر) منها تمثّل في مظاهرها، وهو ما يُصوّر مظاهر الحياة الصّوفية في الرّواية، أما شخصية (بلاّرة) فتجلت فيها الولاية الصّادقة صدق رغبتها في تأسيس عالم مثاليّ خالٍ من الحروب والنزاعات، وهو ما يُقوّي النّزعة الصّوفية للرّواية. ومن خلال الولاية الصّوفية وتمظهراتها طرح الرّوائي قضية الصّراع بين المذهبين الصّوفي والسّلفي الوهّابي، حيث تمثّل الشّخصيتين المحوريتين طرفي هذا الصّراع. (بلارة) الجانب الصّوفي و(الوليّ الطاهر) الجانب الوهّابي.

3. الحال بين المفهوم الصّوفي والتوظيف الرّوائي

اتكأ الرّوائي على قراءة التاريخ "كحالة" بالتعبير الصّوفي ما سمح له باستعمال بناء لولبي في سرد الأحداث الرّوائية حسب قوله، ما يعني أنّه استعان بالحال الصّوفي في سرد الأحداث، لذلك سنبحث في كيفية توظيفه للحال الصّوفي.

1.3. المفهوم الصّوفي للحال

يقال إنّ الحال هو ما يقع على القلب دون جلب، فهو "معنى يرد على القلب من غير تصنّع ولا اجتلاب ولا اكتساب: من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النّفس سواء يعقبه المثل أو لا، فإذا دام وصار مِلْكا يُسمّى مقاما، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب..."[24] وقد ذكر القشيري شروحات مفصّلة عن الأحوال التي يرتقي إليها العبد فوق حال الخوف والرّجاء في شكل ثنائيات وهي: القبض

والبسط، الهيبة والأنس، التواجد والوجد والوجود، الجمع والفرق، الفناء والبقاء، الغيبة والحضور، الصّحو والسّكر، الذوق والشرب، المحو والاثبات، الستر والتجلي...[25]

2.3. تمظهرات الأحوال الصّوفية في الرّواية

تطالعنا في النّص مجموعة من الأحوال الصّوفية التي وقعت على قلب (الوليّ الطّاهر) أهمّها حالتي (الوجد) و(الغيبة) ولهما دور أساسي في بناء الأحداث الرّوائية.

1.2.3. حال الوجد

لقد قيل إنّ "الوجد مكاشفات من الحق، ألا ترى أنّ أحدهم يكون ساكنا فيتحرّك ويظهر من الزفير والشّهيق؟"[26]. كما وُصف الوجد "بأنه شعلة متأجّجة من نار العطش تستفيق لها الرّوح بلمع نور أزلي وشهود رفعي(...) لذا لا تخلو أحوالهم هاهنا من حال القلق(...)وكلّ هذا من شأنه أن يزيد من الانفعالات المولّدة للوجد..."[27] ونجد في النّص دلالات كثيرة على هذه الحال، أوّلها قول السارد: "**عندما يسقط الوليّ الطاهر مغميّا عليه، في حضرة طيّبة، لا حدّ لمكانه ولا لزمانه، ومحاولة معرفة ذلك، إفساد للحالة**"[28]. وقد جاء هذا القولكإشارة يبعث بها النّاص فيجهّز المتلقّي لاستقبال عجائبية التّنقل المكاني للشّخصية (الوليّ الطاهر) وتعددّ أزمنة تواجده أيضا، وذلك ما تعبّر عنه عبارة (لا حدّ لمكانه ولا لزمانه). ثمّ بعد ذلك تتوالى المواجيد على (الوليّ) ومن ثمّ نقل السّرد إلى مستوى آخر زمكانيّا، ما جعل النّص يقوم على ثلاث مستويات سردية**المستوى الأوّل**: ويتميّز بانفراد (الوليّ الطاهر) بسرد أحداث المقام الزّكي وما يجري في عالم (بلارة)،**المستوى الثّاني**: نسمع فيه صوت سارد عليم يتولى سرد أحداث الفيف في فضاء مفتوح (صحراء) وغير معلوم، ولا يخضع فيه (الوليّ) لسطوة الزمان الأرضي، وإنّما هو تحت تأثير سطوة لحظة الآن الأبدية، يسترجع ما حدث في المقام قبل حالة التّيه، تسيطر عليه الرغبة في العودة إلى مقامه لكنه يقع تحت تأثير الوجد ويمضي إلى

معاركه،**المستوى الثالث:** ويتميّز بتعدّد الأزمنة والفضاءات والأصوات السّاردة، حيث نفس السارد العليم يسرد الأحداث التاريخية في الجزيرة العربية، وأحداث المعارك الطاحنة التي يخوضها (الوليّ) في أفغانستان وفي مصر، أمّا أحداث مجازر الجزائر في التسعينات فيتولى (الوليّ الطاهر) سرد وقائعها.وإذا أردنا التمثيل لحركة السّرد بين

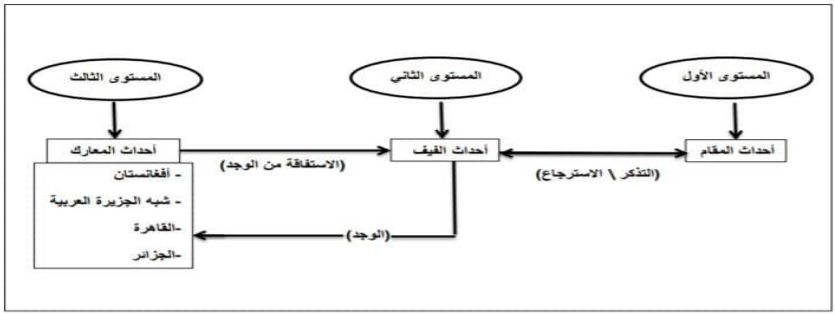

المستويات الثلاثة سنحصل على الخطاطة المبيّنة أدناه:

تسرد الأحداث بطريقة التناوب بين تلك المستويات، فتتشكّل متاهة سردية ثلاثية المسارات، ويشكّل حال الوجد الصّوفي فيها أهمّ تقنية تساعد على الانتقال المكاني والزّماني للشخصية، ويحدث الوجد خلال المستوى السّردي الثّاني، وقد تتبّعنا حالات الوجد في النّص وما يترتّب عنها من أحداث تاريخية وأخرى واقعية معاصرة، وفيما يلي بيان ذلك:

- قول السّارد: "**ما أن "حيّ وزكى"، حتى داهمته حمّى مصحوبة برعشة فوجد نفسه، يثب قافزا (...) ثمّ سقط عند أرجل العضباء يتخبّط مصروعا، مرفوع السبابة يتلو الشهادة"** وبعد حالة الوجد هذه، المصحوبة بالتّخبّط والصّرع، يستفيق (الولي الطاهر) مباشرة في جبال أفغانستان ووديانها ليشارك في حربهم الأهلية. وهي الحرب التي خاضتها حركة طالبان لتأسيس دولة إسلامية.

- وقوله أيضا: "**الحلقة الكبيرة المستديرة، تتماوج أماما وخلفا، يمينا وشمالا، وأنا في الوسط، أهفو للهفو. لحبيبي يأخذني حيث يشاء، يقربني فلا أنسى. ويسرني لليسرى**"[29]. ومن خلال هذا الوجد ينقل الرّوائي الأحداث إلى الجزيرة العربية ويعود أدراج التاريخ إلى سرد أحداث حروب الرّدة، تحديدا إلى واقعة "**معركة اليمامة**" سنة (11هـ).[30] ويجعل من شخصيته الرّوائية طرفا في الأحداث بأنّ وحّده بالشخصية التاريخية "**سالم مولى أبي حذيفة**" حامل راية المهاجرين في المعركة وأحد شهدائها[31]. ما يُبرز توظيف الرّوائي لمفهوم الاتحاد عند الصّوفية. فيصبح (الوليّ الطاهر) طرفا في حدث تاريخي، فيقول: "**اختطَفتُ راية خالد، وهَتَفَ فيَّ المسلمون: يا سالم إنّا نخاف نُؤتى من قِبَلك. (فردّ) بئس حامل القرآن أنا إذن إن أُتيتم من قِبَلي**، "وهو نفس خطاب الشخصية التاريخية الوارد في مصادر التاريخ الإسلامي التي سردت الحادثة.

وقد وظّف الرّوائي هذه التقنية في توحيد باقي شخصياته الرّوائية بالشخصيات التاريخية، كما هو جليّ في قول السارد "**يتوحّد الكائن في الكائن، كما يتوحّد في خالق الكائن**"[32]، بحيث تصبح كلّ الطالبات ومعهن (بلاّرة) "**أم متمم**"، وكلّ الطّلاب ومعهم (الوليّ الطاهر) "**مالك ابن نويرة**" وذلك من أجل اعادة قراءة الحادثة التاريخية الإسلامية التي قَتل فيها "**خالد ابن الوليد**" "**مالك ابن نويرة**" وتضارب حولها رأيا الخلفيتين "**أبي بكر الصديق**" و"**عمر بن الخطّاب**"، فانتصرت الشخصيات الرّوائية للشّخصيات التاريخية التي يرى النّاص أنّها ظُلمت، إنّ الرّوائي يستحضر الواقعة التاريخية ويمزجها بالحدث الرّوائي، ثمّ ينتصر للطّرف المهمّش في الحقيقة التاريخية.

- ويقول أيضا: "**أخذته رعشة، واعترته حمى، وداهمته غمى، فكبّر وشمر على ذراعيه، وارتمى يخوض أوار مجزرة، ملتهبة**"[33]. ما يوضّح مشاركته في إحدى مجازر الصّراع المسلّح في "الجزائر" خلال فترة "**العشرية السّوداء**" وهي "**مجزرة الرايس**" التي وقعتبمدينة "**سيدي موسى**" في29أوت 1997*بضواحي مدينة الجزائر العاصمة، وقد

قدّم السارد بعض الإشارات التي تدلّ عليها تحديدا، بقوله "**بينما هناك، جنب أولاد علال، في "الرايس" خارج النّفق..."**[34]، ويقول: ".. **لا تُبقوا على من جرت عليه الموسى، ولا على من لم تجر عليه.**"[35] وقد فصّل الرّوائي في سرد أحداث هذه المجزرة منتقدا ممارسات دعاة الفكر التكفيري التّطرّفيالوافد إلى الجزائر ضمن ما عُرف بمشروع النّهضة الإسلامية.وقد أورد النّاص إشارة عن هذا المشروع في تصريح الوليّ الطاهر: "**قلنا، نحصّن الدرعيّة، ثمّ نبدأ بعُيُنة، تنطلق أوّل الأمر عشيرتنا عَنَزة، ثمّ ينظمّ إلينا الأنصار والمريدون، وباقي العشائر والقبائل (...) فلنعد الخلافة من هنا. من الدَّرْعية وعُيُنة والأحساء.**"[36]ففي هذا المقطع إشارة لانطلاقة مشروع "**محمد بن عبد الوهاب**"، بل إنّ الخطاب يبدو وكأنه له متحدّثا عن مشروعه الذّي قامت على إثره الدّولة السّعودية في حوالي سنة 1744م، ثمّ توالت بعد ذلك توسّعات تلك الدّولة بحروب نشبت بينها وبين الامارات المجاورة لها[37]، وتمدّد الفكر الوهّابي الجهادي في البلاد العربية حاملا لحلم إعادة الخلافة، وهي الأفكار نفسها التّي صبّها الرّوائي في وعاء شخصيته الروائية (الوليّ الطّاهر).

إذن فكلّ حالة وجد تصيب (الوليّ الطاهر) تنقله إلى زمكانية ما يخوض فيها حربا أو معركة، وكلّها معارك تدور رحاها بين المسلمين أنفسهم، وكأنّ الروائي يجمع بين الأحداث التاريخية والأحداث المعاصرة في إشارة منه إلى أنّ الأخيرة من تبعيات الأولى. فهو يعود أدراج التاريخ إلىحروب الرّدة، مشيرا من وجهة نظره إلى إحدى مواطن ضعف حجتها، وهي تناقض مواقف الصّحابة الكرام في البداية حول ضرورتها، خاصة موقفي الخليفتين أبي بكر وعمر، كما جاء في مصادر التاريخ الإسلامي، وتوظيف واقعة قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة في النّص إنما هو للإشارة إلى ذلك السّجال بين الخليفتين حول الحرب نفسها، فالرّوائي يعتمد الإشارة والتلميح والإماءة، كما هي سُنّة الصّوفية في خطابهم، ويبتعد عن التّصريح لما فيه من إثارة للمسكوت عنه حول أحداث التاريخ

الإسلامي، لذلك هو يترك للقارئ مهمّة التنقيب عن المعاني المخبوءة، ويدعوه إلى قراءة أحداث التّاريخ وفق رؤية ناقدة، إمعانا منه في القول بعدم قدسية التّاريخ الإسلامي.

من خلال تتبّعنا لحالات الوجد في النّص، نخلص إلى أنّ الرّوائي وظّفهبما يصحبه من مظاهر التخبّط والصرع والغشية.. وإذا كان الصّوفي يشطح في غمار حالات الوجد بعبارات مستهجنة فإنّ الشخّصية الرّوائية تأتي بالأفعال المستنكرة في غمار كلّ حالة وجد، ومنهيجمع الروائي بين ما هو صوفي روحاني، مأخوذ بالإشراقات الإلهية، سابح في الأنوار الرّبانية، وما هو مادّي لصيق بالطبيعة البشرية الطّينية، غارق في صراعاتها الدّموية غير المجدية، فيجعل مظاهر الأوّل تفسّر بشاعة أفعال الآخر، فالوجد الذي يسمو بالصّوفي إلى عوالم الجمال المطلق هو نفسه الذي ينحدر (بالوليّ الطّاهر) في عالم البشاعات البشرية وضيق رؤيتها التّطرّفية، وهكذا تتّضح الهوة الشاسعة بين المذهبين؛ الصّوفي والوهّابي التكفيري.

2.2.3. حال الغيبة

تحضر ثنائية (الغياب\الحضور) في أذهاننا منذ مطالعتنا للعنوان متجلّية في لفظة (يعود)، فالعودة تقتضي بالضّرورة غيابا يسبقها، وهي بالمفهوم الصّوفي "غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحسّ بما ورد عليه، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد من تذكّر ثواب أو تفكّر عتاب"[38]. فالصّوفي قد يغيب عن الاحساس بنفسه وبمن حوله نظرا لقوّة ما يرد على قلبه من واردات ربّانية. فالصّوفية يقصدون بالغَيْبَة غياب عن الأشياء وعن الخلق بالحق.

أما بالعودة إلى النّص، فنجد الأحداث تتمحور حول عودة (الوليّ الطاهر) إلى مقامه الزّكي، فهو يحاول تمييزه من بين القصور، و يحاول بلوغه، ويحاول اختراقه، دون جدوى، وهذا ما يسرده الرّاوي في المستوى السردي الثاني، ما يجعل هذا المستوى

بمثابة **"سردية برزخية"** بين المستويين الآخرين (أحداث المقام) و(أحداث المعارك). وقطبي ثنائية (الغياب \\ الحضور) في النّص يتمثلان في غيبة (عن المقام) وحضور (في المقام) وهناك غيبتان؛ غيبة (في الفيف) مباشرة بعد الطّرد، تتفرّع عنها أخرى إذ يتمادى الوليّ في الغَياب في زمكانيات متعدّدة، وهو ما نمثل له في الشكل أدناه:

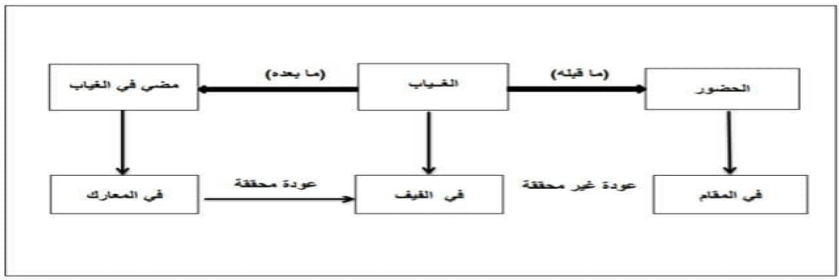

فالغيبة في النّص مكانيّا هي غياب عن المقام الزّكي، وترتّب هذا الغياب عن معركته مع(بلاّرة) التي غيّبَتْهُ عن مقامه، فهو مُبعد قسرا بسبب لعنة (بلاّرة)، وهو ما يؤكّده قائلا: "**إنّني ألهث بحثا عنكِمنذ رمَيْتِني من داخل المقام الزّكي، إلى تيه بني إسرائيل هذا**"[39]. فكأنّ (الوليّ الطاهر) مطرود من جنّته إلى شقاء الدّنيا وقسوتها وصراعاتها، يركض ركض الوحوش في الأرض، ويتوق إلى الاتّصال (ببلاّرة) التي اكتشف متأخّرا أنّها ليست شيطانا رجيما حاول اغواءه، فيناجيها نادما مستعطفا: "**كيف يا بلاّرة العزيزة، تستطيع نفس أن تنفصم وتظلّ بعيدة عن ذاتها، وكيف تستطيع ذات أن تتجرّد من نفسها**"[40] فهو في الفيف يعيش اغترابا مكانيّا عن مقامه (جنته) وآخر وجوديّ عن اكتمال ذاته (ببلاّرة) ذات الطّبيعة الرّوحية كما سبق وذكرنا، والأمر الذي يزيد من حدّة الشّعور بالاغتراب هو مقوّمات عالم الفيف وأبعاده الغريبة، إذ يختلف فيه منظور الأجسام والمسافات والمساحات، كما تختلف طبيعة الزّمان، فشمسه ذاهلة وزمانه لحظة آن ممتدّة في اللانهائي، وقد عبّر (الوليّ الطاهر) عن ذلك قائلا: "**الشّمس في ذهول**

عميق. إنّه يوم ربّك. ألف سنة مما يعدون..."[41]. ويبدو جليّا أنّ الرّوائي استعان بالخطاب القرآني الذّي حدّد قيمة الزّمن الأرضي بالنّسبة إلى الزّمن العِنديفي الآية الكريمة: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[42]. لكي يفسّر تفسيرا دينيّا وعي الشخصية باختلاف حركة الزّمان.

ثمّ ما يلبث (الوليّ الطاهر) أن يشكّ ويرتبك تجاه هذا الوضع فيعبّر عن قلقه الوجوديوينسب الوضعإلى حالة صوفية يسمّيها (حالة الذّهول)، يكابد فيها اختلاف عناصر العالم من زمان ومكان، أين يصبح الزّمان غير مرتبط بالشمس التي توقّفت عن المسير، ويمكننا التّنويه هنا إلى افادة الرّوائي من حادثةٍ حَبَسَ الله فيها الشمس استجابة لدعاء سيدنا يوشع عليه السلام[43]، وذكرتها مصادر الحديث النّبوي الشريف كقول الإمام أحمد: **حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ عَنْ هِشَامٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلاَّ لِيُوشَعَ لَيَالِي سَارَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ»**[44]. وقد أفاد من هذه الحادثة بعض رجال الأديان والفلاسفة في التأصيل لمقولاتهم عن الزمان، ومن ثمّ القول بذاتيته وبالزّمان النّفسي الوجودي، "فالزّمان إذ ينتفي ارتباطه بالفلك يصبح حالاً داخل النّفس"[45]. وإلى نفس المنحى تتّجه الرؤية الصّوفية اللاعقلانية للزمان، فالمتصوّفة يؤكّدون على ذاتية الزمان ويقولون إنّ "الصّوفي ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال قائم بما هو مطالب به في حينه..."[46]. فالزّمان مرتبط بحالة الصّوفي وما هو غالب عليه،ومنهم من يصطلح عليه "بالوقت المسرمد، "فإذا قال الصّوفي وقتي مسرمد، فمعنى ذلك أنّه يعيش مع الله، وأنّه حال لا يتغيّر في جميع أوقاته"[47]، فهو غير خاضع ذهنيّا لحركة الزّمن الأرضي التي تخضع لها المخلوقات بقدر ما هو خاضع لحالته النّفسية المرتبطة بعالم ما فوق زماني "وهكذا يصطبغ الوقت بالحال، ويتميّز الحال

بالوقت، ويعيش الصّوفي الزمان في الحال، فيصبح أقرب إلى اللحظات الوجودية غير ذات اتّصال."[48] وهي الحالة التي تعيشها الشخصية في أحداث المستوى السردي الثاني.

ووفق هذه الخلفيات جسّد الرّوائي عالمه الغرائبي في بنائية أحداث **"السردية البرزخية"**، أين تُذهل الشّمس ولا يأتي الليل، لأنّ (الولي الطاهر) يعيش حالة صوفية لا يحدّها مكان ولا زمان، ويمرّ بأحداث وفق مقوّمات زمكانية برزخية، لا الزّمان فيها عادي بحساباته الأرضية، ولا المكان وأسسه كذلك، كما أنّ الوليّ عالق في هذه الزمكانية لا يستطيع العودة إلى مقامه ولا يستطيع الخروج من دائرة محاولة العودة.

وهكذا يعيش (الوليّ الطّاهر) في النّص غَيبة مكانية خارج أسوار مقامه، وأخرى زمانية بدخوله في حال شكّلت زمانه النّفسي الوجودي وجعلته تائها يحاول التّأقلم مع مظاهر وأسس تحلّ في عالمه الدّاخلي أو النّفسي الوجداني، وهو ما يشبه غيبة الصّوفي عن إحساسه بنفسه وبالمحسوسات من حوله، فالصّوفي إذا تلقّى الفيوضات الإلهية ووقع تحت سطوة الحال يخرج من حدود المكان ومعايير الزمان الأرضي يتوق إلى الاتصال بالذّات العليّة، وهو حال (الوليّ الطّاهر) الذي يسيطر عليه هاجس الاتصال (ببلاّرة) والرّغبة في العودة إلى جنّته المفقودة (مقامه الزكّي).

4. المقام بين المفهوم الصّوفي والتوظيف الرّوائي

يُقال إنّ المقام هو "موضع الإقامة وزمانها وأيضا المسكن، وهو المنزلة والمكانة، أو مركز في نظر وقلب جماعة من النّاس يصل إليها إنسان بفضل التقدير له لمقامه عند الله تعالى وعند النّاس نظرا لقربه من الله عزّ وجلّ وإلى كرامات حصل عليها، ويصاحبها بعض مظاهرالاعتراف والاحترام والاعجاب"[49].وتبرز لفظة المقام بداية في جملة العنوان التي قاربناها صوفيّا سابقا، لكن هل الدّلالة التي أفصحت عنها تلك المقاربة سابقا هي نفسها دلالة المقام في المتن؟

1.4. المفهوم الصّوفي للمقام

أما عند الصّوفية، "فمعناه مقام العبد بين يدي الله عزّ وجلّ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرّياضات والانقطاع إلى الله عزّ وجلّ"[50]. وفي نفس المعنى يقول القشيري: "المقام ما يتحقّق به العبد بمنازلته من الآداب بما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلّب ومقاساة تكلّف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرّياضة له..."[51]. ويرتقي الصّوفي من مقام إلى آخر تدرّجا بالنّفس في معراجها نحو مصاف الرّوح، ولعمليّة الارتقاء هذه شروطها؛ إذ "لا يرتقي من مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإنّ من لا قناعة له لا يصحّ له التّوكّل، ومن لا توكّل له لا يصحّ له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصلح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصلح له الزّهد(...) ولا يصحّ لأحد منازلة مقام إلاّ بشهود إقامة الله تعالى إيّاه بذلك المقام ليصبح بناء أمره على قاعدة صحيحة"[52]. فالمقامات إذن تشكّل الجانب العَملي الذي تقوم عليه حياة الصّوفي في سلوك طريقه إلى الله، وبدايتها مقام التّوبة ومنتهاها مقام الرّضا.

2.4. تمظهرات المقام في المتن الرّوائي

أمّا المقام في النّص فله صفته المادّية ووجوده الهندسي كمكان روائي، فهو قصر من سبعة طوابق، تعلوها صومعة مربّعة الشّكل حسب وصف السارد لهمشيّها إيّاه بإرم ذات العماد. فيتجسّد كمكان روائي ذو دلالة صوفية، وقد أُنشأ لمهمّة الهروب بدين الله وتحصين الأمّة ضدّ وباء الفسق والفجور، فهو جزء من خطّة محاربة الوباء حسب قول (الولي الطاهر): "**عندما دبّ اليأس بعد محاولات متواصلة، بلغت حدّ المواجهات المسلّحة، والحروب الطاحنة، ما تزال تتواصل، ارتأيتُ، أن الهروب بدين الله، عنصر مهم في المواجهة**..." أي أنه جزء من مشروع اصلاحي ديني قطع أشواطا في

المواجهات المسلّحة والحروب ثمّ أنشأ بغرض بناء مجتمع متديّن تمهيدا لإسهامه لاحقا في إعادة الفتوحات.

أمّا وظيفته في الرّواية، فيجمع فيه من فرّوا من الوباء وجلبتهم حسن العبادةوحلقات الدّرس الدّيني، تحت غطاء صوفيّ ملتزم بنظام الزّاوية؛ على رأسه (الوليّ الطاهر)القطب، ثمّ نائبه المقدّم، يليه رئيس الشّيوخ، ثمّ الشّيوخ، ويأتي بعدهم المريدين والمريدات، وهكذا يكتمل النظام الاجتماعي الهرمي لقاطني المقام، وله وظيفة باطنيةهي الرغبة في تجسيد حلم اعادة الخلافة وفق أسس تكفيرية جهادية حسب قول (بلارة) للوليّ: "**تتوق إلى نسل جديد، محصّن ضدّ الوباء، ينشأ على إسلام صاف، يتحوّل إلى جيش تغزو به العالم، فاتحا للبلاد مجبرا العباد على دخول الإسلام**"فعبارة: (ينشأ على إسلام صاف) اشارة إلى التنشئة الصّوفية لأفراد المجتمع المرغوب فيه، أما عبارة: (يتحوّل إلى جيش تغزو به العالم) فتشير إلى رغبة (الوليّ الطاهر) في تشكيل جيش جاهز للغزو من أجل تحقيق حلم اعادة الخلافة. وفق الآراء التكفيرية، وهم ملزمون بطاعة وليّهم طاعة مطلقة استنادا إلى علاقة المريد بشيخه المبنية على الخضوع التّام لرغباته.

كما أنّ للمقام في النّص أحوال ومتغيّرات حسب تغيّر المستويات السّردية التي، إذ يمثّل الزاوية الصّوفية خلال أحداث المستوى السّردي الأوّل، فيتجسّد كفضاء ذي حمولة دينية، تتحرّك فيه الشّخصيات وتتفاعل معه، فهو مقسّم إلى طوابق خصّص كلّ طابق لنوعية من الشخّصيات، فمثلا المقدّم له مكتب الاستقبال في الطابق الأوّل، أمّا الطّابق السابع فمخصص لخلوة القطب، وخلال أحداث السّردية البرزخية، يصبح المقام متحركا؛ يتقدّم ويبتعد ويتضاعف، يصبح بلا أبواب ولا نوافذ والولوج إليه أمر مستحيل، وتنبعث منه أصوات غير إنسية، إنّه خاضع للحالة النّفسية (للوليّ الطّاهر)، وهو بذلك عنصر (فاعل) في أحداث الرّواية، ويؤثّر في الشخصية إلى درجة يصبح هو الموضوع الذي ترغب في تحقيقه، فلا تنفصل الذّات عن موضوعها (المقام) في تأثيرهما

الواحد في الآخر؛ فالشخصية داخل المقام هي نقيضها خارجه؛ومنه فالمقام لا يحضر في النّص بدلالته الصّوفية التي تعني منزلة العبد بين يدي ربّه، وإنّما يحضر كمكان أُبعدت الذّات عنه وترغب في استعادته مستنفذة لكلّ الجهود، وبالتّالي فالرّغبة في العودة إلى المقام كمكان هي رغبة في استعادة المكانة التي خسرتها الذّات.

ومنه يمكن القول إنّ المقام يشكّل محور الصّراع القائم في الرّواية بين الفكر الوهابي التكفيري المتطرّف والفكر الصّوفي الروحاني المتسامح، فالوليّ الطّاهر خسر مكانته (مقامه) بخسارة معركته مع بلاّرة، إذ تمسّك بأفكاره المتطرّفة وسَفَك دمها فيما كانت هي ترغب بالاتحاد معه لتحقيق عالم مثالي متسامح بلا تطرّف، فخسر بذلك امكانية تحقّقه بالولاية الصّوفية، وبعث صورة الإسلام الصافية والمشرقة ومكانته النورانية السّامية المتجسّدة في المذهب الصّوفي وفق رؤية الرّوائي.

5.خاتمة

ختاما لمقاربتنا لرواية "**الوليّ الطاهر يعود إلى مقامه الزّكي**"، وبحثنا في كيفية تمظهر المفاهيم الصّوفية في بناء أحداثها توصّلنا إلى النّتائج الآتية:

- أنّ الرّوائي أفاد من نظرية الولاية عند الصّوفية في بناء شخصيتيه المحوريتين (الوليّ الطاهر) و(بلاّرة)، فشكّل الشّخصيتين المرجعيتين طرفي الصّراع الرّوائي الذيّ يعبّر عن الصّراع بين المذهبين الوهّابي والصّوفي.

- أنّ الرّوائي استعان بمفهوم الحال الصّوفي، فوظّف (الوجد) كتقنية تسمحبتنقل الشخصية الرّوائية في أزمة وجغرافية متعددتين، تتعدّد بفضلها مستويات السّرد في الرّواية، كما اتّخذ منه مطيّة لاستحضار الأحداث التاريخية ومزجها بالأحداث الرّوائية، ووحّد الشخصيات الروائية بالشّخصيات التاريخية، في محاولة لإعادة قراءة الأحداث التاريخية بالنّظر إلى انعكاساتها على الواقع العربي.

- يحضر مفهوم المقام في الرّواية وفق رؤيتنا التأويلية كرمز للمكانة، والعودة إليه تمثّل عودة الخلافة الإسلامية التي دعت إليها حركة النّهضة الإسلامية وفق أفكار دينية متطرّفة، فالرّوائي يدين في مدوّنته الفكر الوهّابي التكفيري وينتصر للمذهب الصّوفي الذّي حورب وهمّشت شخصياته على مرّ التاريخ، ويرى فيه صورة الإسلام الصّافي والمشرق الذي يمكن من خلاله تجسيد عالم متسامح بلا نزاعات ولا عصبيات ولا حروب.

*** *** ***

6. الهوامش

[1] أبو القاسم عبد الكريم القشيري- الرسالة القشيرية- دار أسامة- بيروت- لبنان- 1987-ص200- 201.

[2] الحكيم الترمذي: ختم الأولياء،تح الشيخ عبد الوارث محمد علي،دار الكتب العلمية، ط1999،1،ص 18

[3] الحكيم الترمذي: ختم الأولياء، ص 25.

[4] ينظر: الحكيم الترمذي: ختم الأولياء، ص 25-26.

[5] أبو محمد روزبهان البقلي الشيرازي: مشرب الأرواح- ألف مقام ومقام من مقامات العارفين بالله تعالى، ضبطه عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 2006، ص 70.

[6] السيدمحمدتقي مقدّم:تر موسى قصير العاملي، لبنان، مؤسسة الأعلميللمطبوعات،ط2001،1،ص160.

[7] الرواية: ص37.

[8] القشيري: الرسالة، ص 276.

[9] ينظر: الرواية: ص 59.

[10] السراج الطّوسي: اللّمع، ص 49.

[11] الرّواية: ص 52.

[12] الرّواية: ص 52.

[13] ينظر: السيد سلامة غنمي: سيدنا الخضر عليه السلام،مصر،دار الأحمدي للنشر ط1، 2000، ص16.

[14] الرواية: ص 133.

[15] الرواية: ص 104.

[16] ينظر:ابن عذارى المراكشي: البيان المُغرب في أخبار المغرب،لبنان،مكتبة صادر،ج1، ط1، 1950، ص 428-435.

[17] الرواية: ص 86.

[18] الرواية: ص 85.

[19] سورة الحجر: الآية رقم 99.

[20] ينظر: حسن الشرقاوي: معجم الألفاظ الصّوفية، القاهرة، مصر، مؤسسة مختار للنّشر والتّوزيع،1992، ط2، ص 289.

[21] ينظر: المرجع نفسه، ص 290.

[22] الرواية: ص 114.

[23] الرّواية: ص 79.

[24] السيّد الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح محمد صدّيق المنشاوي، القاهرة، مصر، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، 2004، ص72-73.

[25] ينظر: القشيري: الرّسالة، ص 55-80.

[26] الطوسي: اللمع، ص 263.

[27] عبد الرحمن بدوي: شطحات الصّوفية، ج1، الكويت، وكالة المطبوعات، دط، دت، ص 13.

[28] الرواية: ص 15.

[29] الرواية: ص 38.

[30] ينظر: محمود شاكر شاكر: التاريخ الإسلامي، ج3 الخلفاء الراشدون، لبنان، المكتب الإسلامي، ط8، 2000، ص 74.

[31] ينظر: جلال الدين السّيوطي، تاريخ الخلفاء، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2، 2012، ص161.

[32] الرواية: ص 70.

[33] الرواية: ص 91.

[*] لا توجد مصادر عن الحادثة،استعنا بفيديوهات منشورة على اليوتيوب توثّق لردود أفعال أهل المنطقة.

[34] الرواية: ص 93.

[35] الرواية: ص 94.

[36] الرّواية: ص 60.

[37] ينظر: عبد الله صالح العثميين، الدّرعية نشأة وتطوّرا في عهد الدّولة السّعودية الأولى، الرياض، السعودية، دارة الملك عبد العزيز، 1434هـ، ص91.

[38] القشيري: الرسالة، ص 63.

[39] الرواية: ص 110.

[40] الرّواية: ص 110.

[41] الرّواية ص: 19.

[42] سورة الحج: الآية 47.

[43] ينظر: الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، د.ط، 1981، ص443-445.

[44] الإمام أحمد ابن حنبل: المسند، تح عبد القادر عطا، ج4، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 2008، رقم الحديث 8538، ص 300.

[45] يمنى طريف الخولي: الزمان في الفلسفة والعلم، مصر، مؤسسة هنداوي، ص52.

[46] القشيري: الرسالة، ص 53.

[47] المرجع نفسه، ص 294.

[48] يمنى طريف الخولي: الزمان في الفلسفة والعلم، ص 54-55.

[49] السيد يوسف البيّومي: المقام والمرقد والعتبة، موقع كتابات في الميزان، نشر بتاريخ 13 أفريل 2013 https://www.kitabat.info/subject.php?id=29761

[50] الطّوسي: اللّمّع، ص 40.

[51] القشيري: الرّسالة، ص 53.

[52] القشيري: الرّسالة، ص 54.